عرض سريع

يوم الفتوّة فى بغداد

للأستاذ على الطنطاوى

ذلك هو يوم الجمعة ٢٧ يناير ، الذى انتقلت فيه بغداد كلها ، فاستقرت فى شارع الرشيد وشارع غازى ، لترى مركب الفتوّة ، الذى يصل بين غازى والرشيد ، فينشئ المجد الجديد ، على أساس المجد التليد ... وقد أتى الناس من كل فج عميق ، ليشهدوا بأعينهم كيف غدا أبناؤهم أسوداً صغاراً ، أشبالاً ، يدافعون عن الحمى ، ويحمون العرين . . . ويبصروا بيصائرهم الآتى المجيد ، والمستقبل الزاهر ، وقد أشرق فجره من عيون أولئك الفتيان ، التى تبرق بريق الحماسة والإخلاص ، وقلوبهم التى تنطوى على التضحية والثبات ، وألسنتهم وهى تنشد النشيد الذى يوقظ الموتى ، ويصب الحياة فى الصخر الصلد ، وأيديهم التى تهز البنادق ، تقول بلسان حالها : إنا نحقق ما نقول !

مرحى يا فتيان العراق ، عشتم للعروبة ، وسلمتم للاسلام !

* * *

أقبل الناس على شارع الرشيد ، قبل أن تقبل الشمس بوجهها على بغداد ، فلؤوا جوانبه ، واستأجروا مداخل المخازن ، وشرفات المنازل والفنادق ، حتى بلغت أجرة المقعد الواحد ربع دينار ، ولا ترى فى شرفة مقعداً ، ولا على رصيف مكاناً ، وتعلق الناس بالأعمدة ، وأشرفوا من الأسطحة ، وكانت الوجوه فى بشر وانطلاق ، كما كانت الطبيعة متهللة باسمة فى هذا اليوم المشهود ، والشمس بازغة ساطعة ، والأنس فى الأرض وفى السماء ...

وانتظر الناس ساعات ، لا يملّون ولا يضجرون ...

* * *

وكنت فى غرفتى فى (الأعظمية) أهم بالنزول إلى بغداد ، ثم يردعنى خوف الزحام ، وكراهية الاختلاط ، وخشية أن يبتلعنى هذا اللج البشرى الهائل . . . وكنت أنظر فى ركام الكراسات التى تبلغ المئات ، والتى جمع فيها كل تلميذ ما يستطيع من الأخطاء والحماقات ، لأموت بتصحيحها ، وتقدير درجاتها ، فلا أمسها ، ولا أدنو منها ، وإنما أنصرف عنها أفكر فى بلدى وأهلى ...

أأنا أهجع آمناً فى بغداد ، وآنس مطمئناً ، وأهلى فى دمشق يمشون على النار ، ولا يدرون أإلى موت أم حياة ؟ أأستمتع بالجمال ، وأتذوّق الحب ، وأنفق الأماسىّ الهادئة ، فى مسارب الأعظمية ، أساير (الشط) وأتفيأ ظلال النخيل ، والشام قد ثار من تحته البركان ، وزلزلت منه الأركان ، وهبّ أهله هبّة المستميت ، يريدون الحياة كاملة ، أو الموت صرفاً زعافاً ؟

فكرت فى ذلك فاستلأت نفسى كآبة وحسرة ، فقمت على غير شعور منى وانطلقت إلى بغداد ، وما أدراك اليوم ما بغداد ؟

* * *

بلغت (الباب المعظم) وعهدى بالمكان أن فيه شوارع وميداناً ، فإذا هو بحر من الخلائق يموج بعضها فى بعض ، وقد غرق فى هذا البحر الشارعُ واختفى الميدان ، فوقفت حائراً لا أتقدم ولا أتأخر ، وطال بى الوقوف ، وخشيت أن أبقى كذلك

وفزع هذا الولد العجيب وأبوه يتناوله من يدى أمه ليقبله القبلة الأخيرة التى لم يره بعدها ، لأنه ذهب ليصاول أخيلا فيقتله أخيل بمساعدة الآلهة ... لا لأنه أقوى منه وأشد مراساً ...

لقد استطاع هوميروس أن يستدر دموعنا وهو يصور لقاء أخيل لبريام المحزون وقد ذهب — وهو ملك طروادة — يرجو بطل الإغريق وزعيم الميرميدون فى أن يدع له جثة ولده هكتور ، وأن يخلى بينه وبينها ، فما كان من أخيل إلا أن أصاخ ودموعه تنزف ، فترك الجثة ، جثة هكتور الذى قتل بتروكلوس حبيب أخيل ، ووكيله على جنده وأعز الناس إلى نفسه ، والذى بكيناه أحر البكاء حينما قتل ، وحينما انتزعت أسلابه ، وحينما جئ به إلى معسكر أخيل معفراً بتراب المعمعة ، وحينما سهدت عليه العيون ، وسهرت عليه حبيبة أخيل

وهكذا يرتفع هوميروس بأبطاله فى الناحيتين ، ويوزع إعجاب القارئ على المعسكرين ، مما سنبينه فى العدد القادم

دريني خشبة

إلى السماء ، فتشددت وقلت: ويحك يا نفسي ! لماذا الجبن؟ وعلام التأخر ؟ ولماذا كنت تدفعيني إلى أن أمارس ألوان الرياضة ، إذا كنت لا تستطيعين النجاة في مثل هذا اليوم العصيب؟ وظننت نفسي قد اشتدت ، فشمرت عن ساعدي وأقبلت أدفع هذا ، وأزيح ذاك ؛ وكلما دفعت عني واحداً حلّ مكانه عشرة ، فخارت قواي وأيست من النجاة ، واعترفت لنفسي بأني لم أبلغ بعد مبلغ عنتر (عنتر القصة) الذي يقبض على الرجل فيرفعه بيده فيضرب به الآخر فيقتل الاثنين ... فوقفت فاشتد على الضغط من كل جانب ، حتى أحسست كأن أحشائي ستخرج ، وضاق نفسي، ولكن كل ضيق إلى فرج ، فلم يكن إلا أن فرج الله عني فبعث رجلاً من رجال الشرطة أعرفه فحملني إلى الفندق الذي أريد ...

* * *

وكان في شرفة الفندق سعادة القائد البطل فوزي القاوقجي وأخي الشاعر أنور العطار في جماعة ، فخلت فيهم ، ولبثنا ننتظر الموكب ، ونتحدث عن الفتوة في العراق ، ونستمع إلى أحاديث فوزي وهي للأديب كنز لا ينفد ... وأشهد أن في العراق فتوة وشبابا ، وأنه شعب عرف طريق الحياة فسلكه . ولقد رأيت من مظاهر الفتوة في بغداد ما جعلني أبكي من فرط التأثر ! رأيت في بغداد طفلاً يدرج على باب منزله ، لم يتعلم المشي ولا النطق ، وهو يحاول أن يخطو خطو الجند ، ويوعز إيعاز القائد : يُسْ . يُمْ . أي : يسرى . يمنى ...

رأيت في بغداد أطفال المدارس الابتدائية ، يسيرون سير الجنود . يقودهم مدرس بلباس ضابط ، يدربهم على فنون القتال

وذهبت مع الطلاب إلى معسكر الانكليز في (سن الذبان) لمباراة رياضية . فرأيتهم قد قلبوا المدينة الانكليزية إلى حي من أحياء العرب ، وأفاضوا عليها روحهم وشبابهم وفتوتهم ، فقلت : تبارك الله ! إذا كان جيش من لاعبي الكرة لا يتجاوز الخمسين شاباً فعل هذا كله ، فكيف لو جاء الجيش العربي جيش المستقبل ؟ وسألت الطلاب في الامتحان هذا السؤال الأزلي : ماذا يريد أحدكم أن يكون ؟ فكان جواب الأكثرين أنهم يريدون أن يكونوا جنوداً ، مشاة وركباناً ، وبحارة وطيارين ، يدافعون عن أمتهم ويذبون عنها كل طاغية أو جبار ينبع من الأرض أو يهبط من السماء ... ورأيت أثر الروح العسكرية واضحاً في الطلاب ، فالطاعة من غير استخذاء ، والحرية من غير تمرد ، والنظام من غير جمود . تلك هي صفات طلاب العراق . وإن في مدرستنا الغربية لثلثمائة طالب ، والمدرسة سائرة سير الساعة المتقنة وليس في إدارتها إلا مدير ومعاون ، مع أن مثل هذا العدد يحتاج في دمشق إلى عشرة ضباط (معيدين) ثم لا تكون المدرسة كالساعة ، وإنما تكون كالبركان الذي يهدد كل لحظة بالانفجار . فيا ليت شباب دمشق يعرفون الروح العسكرية ، كما عرفها أشقاؤهم شباب العراق

* * *

لبثنا ننظر إلى الضحوة الكبرى ، والناس لا يزدادون إلا تدفقاً ، فكأنهم سيول تصب في هذا الخضم العظيم ، والشارع يموج بالناس موجاً ، ويزخر بالخلائق ، وكلهم يتطلع وينظر ، وكلهم يسأل متى يأتي الموكب ، وعمال الشركة الأميركية للسينما ماثلون بآلاتهم في الشرفات والزوايا ، ليصوروا معالم الحياة في بغداد ...

وإن البحر ليموج ويزخر، وإن أمواجه لتصخب وتضطرب، وإذا بالمعجزة قد وقعت فانشق كما انشق البحر لموسى ، وانفتح الطريق ، فنظر الناس ونظرنا فإذا الأعلام العربية تلوح بألوانها الأربعة التي تجمع شعار دول الإسلام كلها بأميتها وهاشمها وعباسها وترمز لفضائل العرب كلها :

بيض صحائفنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

وإذا الموكب قد لاح من بعيد ، كما يلوح الهلال الهادي ، للقائد الآيس ويسطع كما يسطع نجم الأمل في ظلمة القنوط ، وإذا موسيقاه القوية تدوي في الآذان ، فيكون لها أثر في النفوس أحلى من نداء الحبيبة في نفس المحب المشوق، فحبس الناس الكلمات ووقفوا الأنفاس ، يتطلعون ويترقبون ، والموسيقى تعلو والفتيان يتقدمون حتى وصلت طليعتهم . . . فما استطاع ذو شعور إمساك دموع الفرح والرقة والتأثر أن تسيل ، وارتجت الأرض بالتصفيق والهتاف ، كما ارتجت من قبل بهذه الموسيقى القوية المحبوبة ، وهذا النشيد الذي يسمع من خلاله صوت المستقبل البارح وتلوح في أثنائه خيالات المعارك المظفرة . . . وكان الفتيان أطهاراً مثل الزهر اليانع ، لدنا كأغصان الروض ، ولكنهم كانوا أقوياء كدوح الغاب ، أشداء كأسود العرين ؛ وكانوا يسيرون صفوفاً متعاقبة على عرض الشارع ، مرفوعة رؤوسهم ، منتصبة قاماتهم ،

موزونة خطاهم ، على أكتافهم بنادقهم وعدة قتالهم ، يتقدمهم قادتهم ومدربوهم والقائد العام المقدم محمود فاضل ومساعده الجرموز الأكبر بهاء الدين الطباع على الخيول البلق ، أمام الجيش الفتى

* * *

لا والله ما أحسست بالعجز مرة عن وصف ما أرى مثل عجزى اليوم .. ومنذا الذى يقدر على وصف هذا الشيخ الهم ، ذى الشيبة السائلة على صدره وهو يلحظ حفيده الصغير ، يحمل البندقية ويمشى مختالاً مزهواً ، يحلم بأمجاد المستقبل ، ويذكر ما درس من أمجاد الماضى ، فلا يطيق منع الدموع أن تسيل من عينيه وتتحدر على لحيته البيضاء ... إنى لأسمعه يحمد الله على أن لبلاده جيشاً من أبنائها ولم يكن يرى إلا جيشاً واغلاً أو دخيلاً ..

ومنذا الذى يقدر على وصف هذه الأم التى أمسكت بيد طفليها الصغيرين وهما يتوثبان ليلحقا بالموكب ليريا أخاهما ، وطفقت تدعو الله دعاء هامساً يتصعد من خلال الزفرات أن يحفظ لها ابنها ، وللوطن بنيه : « يارب سلّم ، ما شاء الله كان .. يارب سلم .. » وتبكى !

ومنذا الذى يقدر أن يصف شارع الرشيد فى هذا اليوم ؟

يا أيها الرشيد ! قم تر المجد الذى بنيته لا يزال قائماً . قم تر الأحفاد قد نهضوا يسلكون طريق الأجداد . قم ترنا لم نضع الأمانة ولم نهلك التراث . قم تر مجد غازى يتصل بمجدك كما اتصل الشارع بالشارع فعادا مهيعاً واحداً ؟

هؤلاء يا مولاى عدة المستقبل ، وهذا الجيش وهذه الآمال !

* * *

وفكرت فجأة فى بلدى وأهلى ...

نحن هنا فى فرحة والنار مشتعلة فى فلسطين ، والنار توشك أن تلتهب فى الشام ! أى مصيبة لم يرها الشاميون ، وأى خطب لم ينزل بهم؟ أما خرب الأقوياء بلادهم ضرباً بالمدافع وقصفاً بالحديد وحرقاً باللهيب ؟ أما أخذوا ذهبهم وأبدلوهم به ورقاً أفقرت به الخزائن وافتقر به ذوو الغنى واليسار ؟ أما قطعوا البلاد حكومات، وجعلوا من القرى دولات ، وقسموا الناس بدداً ليجعلوهم طرائق قدداً ؟

أفما جرءوا على هذا كله ؟ بلى ، لقد جرءوا حتى لم يبق فى قوس الصبر منزع ، واحتملوا مالا يحتمل ؟ فلما نفد الصبر ، وباد طوق المحتمل ، هبوا هبة الحليم إذا غضب ، وياما أشد غضب الحليم !

أنكون نحن فى فرحة ، وقومنا فى الشام فى ألم ؟

وكدت أشعر بالحزن فى قلبى ، ثم قلت : لا ، إن هذا هو الجيش الذى يجب أن يفرح به قومى. إن بطولة العراق وفتوة العراق صفحة من سفر المجد العربى ، كما أن تضحية فلسطين ، وجهاد دمشق ، ونهضة مصر ، صفحات منه أخرى . إن هذه كلها قوى متحدة ، تتوجه وجهة واحدة !

ثم إن دمشق لا تخاف شيئاً ولا تخشى !

ولم تخاف ؟ الرصاص ؟ لقد فتح له أهلوها صدورهم ! المدافع ؟ لقد أعدوا لها منازلهم ! اليتم والثكل؟ لقد تعوده أبناؤهم وأمهاتهم !

إنهم يريدون أن يحيوا حقاً أو يموتوا . فهل يغلب شعب وطن نفسه على الموت ؟

* * *

وكان جيش الفتوة لا يزال يسير ، والأرض ترتج بالموسيقى والنشيد والهتاف والتصفيق والدعاء والبكاء ، فعاد الأمل إلى نفسى قويا ، هذه (بيه مونت) الوحدة العربية ، هذه (بروسيا) العرب ، هؤلاء عدة المستقبل ، وهذا الجيش ، وهذه الآمال !

فياأهل دمشق ، ويأهل فلسطين ، ويأيها العرب ، فى قاص من الأرض ودان .

اطمئنوا فإن لكم جيشاً !

* * *

ولما جاوز جيش الفتوة شارع الرشيد واتجه إلى شارع غازى ماج البحر واضطرب ، وتدفقت وراءه الجموع ، وأسرعت إلى (الأعظمية) لأدرك الصلاة ، ونفسى تضطرم بأجل العواطف ، وأبهى الصور ، ولكن جمالها لا يستتم فى نفسى . إن فى الموكب لنقصاً ظاهراً . أفما كان فى الامكان سدّه ؟ أكانت تخر السموات على الأرض ، ويفسد نظام الكون لو قدم الموكب ساعة أو أخّر ساعة ، ولم تضع الصلاة على هؤلاء الفتيان كلهم ؟

هذا هو النقص ، فياليت الوزارة لم تنسه ... يا ليتها ساقت هؤلاء الجنود كلهم إلى المساجد ليقيموا فيها الصلاة ، فإن أجدادنا ما غلبوا عدوهم إلا بالصلاة ، والالتجاء إلى الله ، وهوان الدنيا وأهلها عليهم ، وابتغائهم إحدى الحسنيين الظفر لإعلاء كلمة الله ، أو الشهادة !

إذن لكان لهذا اليوم جلال الدنيا ، وجلال الدين ، وإن فى الآتى لإصلاحاً لما مضى ، وإنه على هذا ليوم مشهود !

« بغداد » علي الطنطاوى